في أوّل أيّام الأسبوع... القبر الفارغ

الأخت باسمة الخوري

تبدو قصّة يسوع في كتاب العهد الجديد قصّة رائعة، من حيث أنّها تضع القارئ في حضرة رجل يعلن لإخوته رسالة خلاص وسلام، قصّة رجل يواجه الاضطهادات والموت بثقة تحقق السلام الذي أعلنه، لكنّه يلاقي نهاية مفجعة مسمّراً على الصليب. فهل هذه فعلاً خاتمة القصّة؟

عند هذا الحد، يجد المؤرّخ نفسه غير قادر على الوصول إلى براهين وإثباتات، لأنّه لن يصل إلى الحياة الأبديّة التي يحياها يسوع، والتي يبشّر بها الإنجيل، إلا من خلال تأثيراتها. ولا بد لنتائجه من أن تنطبع بموقفه الإيماني الخاص. فإن آمن بالقيامة، يقع في خطر الحماس الذي طغى على المؤمنين الأوائل، وذلك على حساب حسّه النقدي؛ وإن لم يؤمن يقع في خطر الحكم على كلّ المؤثّرات العجائبيّة للحضور الالهي، كما لو كانت من اختلاق خيال المؤمنين البسطاء. لكن المؤرّخين يُجمعون اليوم على أنّ كلّ المسيحيّين الأوائل قد آمنوا بحياة يسوع الممجّدة بعد موته، لكنّهم يختلفون حول أصل النصوص التي نقلت هذا الإيمان. أمّا المؤمنون

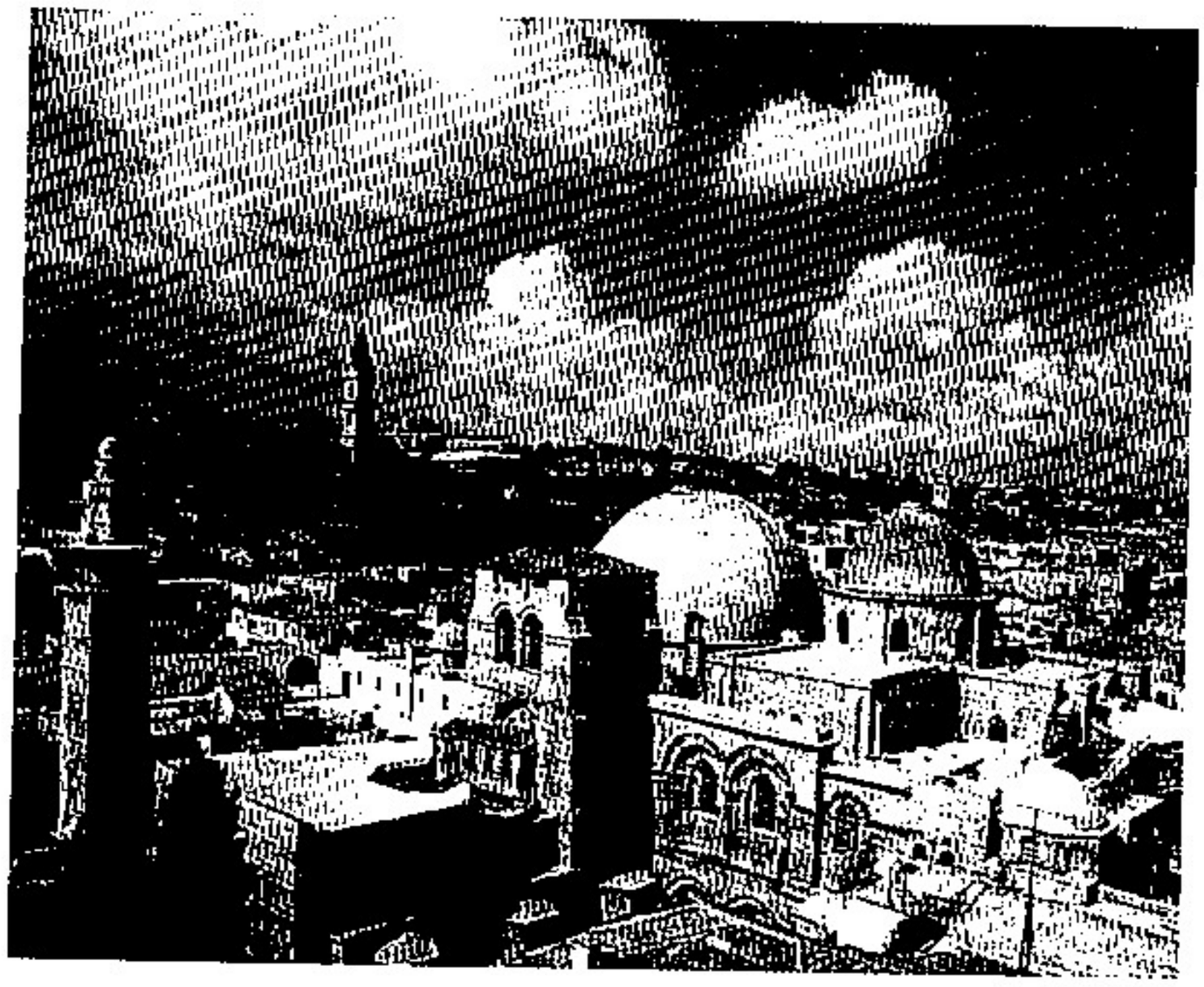

إلى ذاك المكان المقدس أتت النساء باكراً، فوجدن القبر فارغاً: لقد قام الرب!

القبر المقدس وكنيسة القيامة في القدس القديمة/أورشليم.
نرى إلى اليسار قبة الأجراس، وهي من القرون الوسطى، ثم القبتين، الأخريين:
قبة القيامة، وهي الأكبر، والقبة التي تعلو الكنيسة الرومانية.

في أوّل أيّام الأسبوع... القبر الفارغ

المسيحيون فقد دافعوا دوماً عن كون هذا الإيمان يتأصّل في تدخّل مباشر من قبل يسوع القائم من الموت.

في هذا الإطار تندرج نصوص العهد الجديد التي تعلن أنّ التلاميذ قد اكتشفوا قبر يسوع الفارغ في اليوم الأوّل من الأسبوع، وبأنّ يسوع قد تراءى للتلاميذ بعد أن كان قد مات ودفن. فماذا تقول النصوص؟

نحن نملك أربع مجموعات من المصادر تتعلّق بحدث القيامة :

- النصوص الإنجيليّة، وتختلف صِيَغُهَا الأدبيّة كثيراً بين نصوص الآلام، حيث نجد تشابهاً كبيراً، وبين نصوص القيامة، حيث الاختلافات كثيرة. فمرقس، مثلاً، يذكر القبر الفارغ، فيما يذكر متّى القبر الفارغ وتراءي يسوع في الجليل؛ ويذكر لوقا القبر الفارغ وتراءي الرب في أورشليم؛ في حين يذكر يوحنّا القبر الفارغ، لكنّه يخبر عن تراءي الرب يسوع في أورشليم وفي الجليل. بالرغم من ذلك، يبدو التركيز واضحاً في كل هذه النصوص على «اليوم الأوّل من الأسبوع» كيوم القيامة.
- خطب كتاب أعمال الرسل، وهي ليست في أي حال من الأحوال تقاريرَ مباشرة، بل مؤلّفات جمع فيها لوقا معطيات قديمة، وقدّمها بطريقته الخاصّة. فإن كنّا لا نستطيع أن نصل من خلالها إلى معطيات تاريخيّة مؤكّدة، فإنّنا لا نقدر أن ننفي كلّ قيمة تاريخيّة لها.
- أمّا القدّيس بولس، فإنّه ينقل لنا ما تلقاه عن موضوع تراءي الرب (١ كور ١٥)، وعن رؤيته للرب (١كور ٩:١)، وعن إعلان الله ابنه من خلاله (غل ١:١٥-١٦)، ويشهد بأنّ «المسيح قد فاز به» (فيل ٣:١٢).
- الصلوات وقوانين الإيمان، وهي معطيات قديمة أدخلت في رسائل مار بولس وفي غيرها من كتب العهد الجديد (رسالة بطرس خاصّة). هذه المقاطع هي المصادر الأقدم، وتأخذ الأولويّة كمعطيات تاريخيّة[1].

الكرازة الرسوليّة

في رسالة بولس الأولى الى أهل كورنتس، وقد كتبها حوالي السنة ٥٥/٥٦، يحفظ الرسول أقدم شهادة نملكها حول الإيمان بالمسيح القائم من الموت، وهي تعود إذاً الى حوالي العشرين سنة على الأحداث التاريخيّة التي جرت. ينقل لنا بولس من خلال هذه الشهادة، تقليداً قديماً :

«أذكركم، أيّها الإخوة، بالبشارة التي حملتها لكم وقبلتموها، ولا تزالون ثابتين عليها، وبها تخلصون إذا حفظتموها كما بشرتكم بها، وإلاّ فأنتم آمنتم باطلاً... سلّمت إليكم قبل كلّ شيء ما تلقيته، وهو أنّ المسيح القائم قد مات من أجل خطايانا، كما جاء في الكتب، وأنّه دُفن وقام في اليوم الثالث، كما جاء في الكتب، وأنّه ظهر لبطرس، ثمّ للرسل الاثني عشر، ثم ظهر لأكثر من خمسمائة أخ معا معظمهم ما زال حيّاً، وبعضهم ماتوا، ثمّ ظهر ليعقوب، ثمّ لجميع الرسل، حتى ظهر لي آخراً أنا أيضاً كأني السقط» (١ كو ١٥:١-٨).

إن نَقل بولس صيغة الإيمان هذه، فليس للتبشير بها، بل إنّ ما يريده هو الارتكاز على معطيات قديمة معروفة، مقبولة من الجميع، ليبرهن لمعاصريه وجوب الإيمان بقيامة الموتى. فإن قرأنا النص في العمق، نراه يشدّد على تأكيد أحداث تاريخيّة يضعها في جهتين مقابلتين: فمن جهة، يؤكّد بولس إن موت المسيح وقيامته بعد ثلاثة أيام، قد تمّا كما جاء في الكتب؛ ومن جهة ثانية، يؤكد ظهوراته دون أن يذكر الكتب. يحاول بولس إذاً أن يضع الأحداث في قلب مشروع الله، وذلك بشهادة الكتب، كما يذكر المراحل التي تركت بصماتها في العالم : لقد وضع المسيح في القبر، وظهر حيّاً بعد ثلاثة أيام.

ومن الواضح أنّه قد حصلت تراثيات أكثر ممّا تعلن النصوص الإنجيليّة، لكن بولس لا يذكر في كرازته التراثي للنساء. لقد اختار بولس إذاً ما وجده الأكثر إقناعاً : إنّ المسيح حيّ، ومن هذا المنطلق لا نجد عنده برهانَ «القبر الفارغ»، مثلاً، كما لا نجده في الخلاصات الأولى للكرازة الرسوليّة[2]، في حين يركّز الإنجيليّون كلهم عليه.

١- يمكن تمييز هذه الصلوات من ضمن الكتابات من خلال بعض الخصائص: إنّها تندرج في إطار «تلقي الإعلان» (١ كور ١٥:١-٢؛ ١١:٢٣)؛ تجمع مفردات تختلف عن مفردات الكاتب؛ تأخذ شكلاً شبه شاعري مختلف عن النص الذي تندرج فيه؛ تتداخل في موضوع النص وإطاره العام؛ تتكرّر في كتابات متعدّدة لكتّاب مختلفين.

٢- أع ٢:٢٢؛ ٣:١٥-٢٦؛ ٤:١١، ٢٠، ٣٣؛ ٥:٢٩-٣٠؛ ١٠: ٣٧-٤٣؛ ١٣: ٢٧-٣٩؛ ١٧:٣، ١٨، ٣١-٣٢؛ ٢٦: ٢٢-٢٣.

القبر الفارغ، وأمامه النساء التقيات، حاملات الطيب

(كنيسة القديس أبولينار، رافِنّا – S. Apollinaire Nuovo Ravenna)

في أوّل أيّام الأسبوع... القبر الفارغ... وترائي الرب

– القبر الفارغ

بحسب النصوص الإنجيليّة، يلعب اكتشاف القبر الفارغ دوراً أساسيّاً في الإيمان بقيامة يسوع. فالإنجيليّون الأربعة يؤكّدون بأنّه، عند «فجر الأحد» (مت ١:٢٨)، «في صباح اليوم الأحد» (مر ٢:١٦)، «عند فجر اليوم الأحد» (لو ١:٢٤)، «في اليوم الأحد» (يو ١:٢٠)، جاءت النساء إلى القبر، واكتشفن القبر الفارغ. لا يشكّل هذا الحدث برهاناً قاطعاً على القيامة، فهو ليس إلاّ علامة تحضّر لترائي الرب الذي قام من الموت. فالقبر الفارغ هو إذاً علامة ظاهرة وغامضة يجب تفسيرها، لأنّه يمكن أن تحمل شروحات عدّة، وهو ما يعلنه الانجيليّون بنقلهم مختلف المعاني التي حمّلها الناس لهذا الحدث. فمريم المجدليّة تُعلن : «لقد أخذوا الرب» (يو ٢:٢٠ و١٥)، والحراس اليهود يؤكّدون «إنّ تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه بينما كنّا نياما» (مت ١٣:٢٨). لقد وضع القبر الفارغ الشك والحيرة في القلوب، قبل أن يتدخّل الكلمة ويولّد الإيمان (لو ٤:٢٤)[٣]. لكن يمكن لهذا الحدث–

٣– نجد في ١ كور ١٥ تفسيراً مشابهاً: إن ما حدث في اليوم الثالث هو أنّ جسم المصلوب الذي دفن قد قام، وإن كان الجسد المصلوب الذي دفن قد قام، فهذا يعني ان القبر قد فرغ بعد ذلك، أي أنّه أصبح فارغاً. فحدثُ القيامة يفترض إذاً فراغ القبر، لكن القبر الفارغ لا يسترعي انتباه الرسول.

في أوّل أيّام الأسبوع... القبر الفارغ

العلامة أن يفهم على ضوء الإيمان بالقيامة، وبالتالي أن يحمل قيماً مهمّة :

- إنّه يعبّر عن الاستمراريّة بين يسوع ابن الانسان والرب يسوع القائم من الموت.
- يعلن أنّه ليس للموت الكلمة الأخيرة: «هكذا قال السيد الرب : سأفتح قبوركم وأصعدكم منها، يا شعبي...، فتعلمون أني أنا الرب حين أفتح قبوركم وأصعدكم منها، يا شعبي...» (حز ٣٧:١٢-١٣).
- يعلن أنّ الأسكاتولوجيا حاضرة في تاريخ الانسان : انتظار قيامة الموتى.

- تراثي الرب

يشكّل الاختلاف الواضح في تحديد زمان ومكان تراثي الرب القائم من الموت، بحسب النصوص الإنجيليّة، الاعتراض الكلاسيكي ضد تاريخيّة حدث القيامة. ويتفق الشراح على أنّه لا يكفي أبداً ترتيب الأحداث، بحيث تكون الظهورات قد تمّت أوّلاً في أورشليم يوم الفصح (لوقا ويوحنّا) وفي اليوم الثامن (يوحنّا)، ومن ثمّ في الجليل (متّى ويوحنّا)، وأخيراً في أورشليم من جديد للصعود (لوقا)، لأن ترتيباً كهذا لا يحترم أبداً معطيات أدبيّة أكيدة. فبحسب لوقا ٢٤:٤٩، بقي الرسل في أورشليم حتى يوم العنصرة، ممّا ينفي كل إمكانيّة لظهور الرب لهم في الجليل. بالمقابل، يعلن مت ٢٨:٧ بأن القائم من الموت سيظهر في الجليل، ممّا يجعل من الصعب افتراض ترائيه قبل ذلك في أورشليم. فكيف نفهم إذاً زمان ومكان ترائيات الرب القائم من الموت ؟

لا يحدد متّى زمان الترائي الوحيد الذي ينقله والذي يعلن أنّه تمّ في الجليل ؛ أمّا لوقا فإنّه يحدد كلّ ظهورات الرب في أورشليم[٤]، وفي يوم واحد، هو يوم القيامة[٥]، وهو بذلك يقدّم مؤلّفاً أدبياً - شبيهاً لما يقوم به عندما ينقل مشهد زيارة يسوع الافتتاحيّة للناصرة انطلاقاً من بعض الأحداث (لو ٤:١٦-٣٠) - ثمّ لا يخفي بعد ذلك دوره في هذا المشهد، فيتكلّم في أع ١:٣ على تراثي يسوع لتلاميذه مدّة أربعين يوماً. لقد أراد لوقا أن ينهي حياة يسوع الأرضيّة في مساء يوم الفصح ليفسح في المجال لولادة الكنيسة يوم العنصرة، وأراد أن يكون الصعود في أورشليم، لأنّ الانجيل يجب أن ينطلق من المدينة المقدّسة. لكنّنا، إن قرأنا نصوص الأحداث بتمعّن، نستنتج بأنّ هذه الأحداث كلّها لا يمكن أن تكون قد تمّت خلال أربع وعشرين ساعة. فمهما كانت المسافة بين أورشليم وعماوس[٦]، فإنّ التلمذين لن يتركا عمّاوس إلا بعد العشاء (٢٤:٢٩-٣٠)، فكان عليهما أن يعودا الى أورشليم للقاء الأحد عشر، وإخبارهم بما حدث، قبل أن يتراءى يسوع لهم، ويبدد شكوكهم، ويوصل إليهم رسالته، ثمّ يقودهم الى بيت عنيا، حيث سيصعد الى السماء. إنّ تأريخاً دقيقاً لكلّ هذه الأحداث لا يمكن أن يضع الصعود، مثلاً، إلاّ في صباح اليوم التالي؛ وقد شعر لوقا بهذه الضرورة في أع ١:٣. فالمقصود من خاتمة إنجيل لوقا هو التأكيد على أن يوم الفصح هو أساس الإيمان المسيحي وأساس بشرى القيامة، ولهذا فإنّه لا يهتمّ بإعطاء تأريخ دقيق للأحداث، مع أنّه يعرف لهذه الأحداث تأريخاً مغايراً نجده في بداية كتاب الأعمال، حيث نقرأ أنّ يسوع ظهر للأحد عشر طيلة أربعين يوماً بعد الآلام والموت[٧]. إنّ كلّ ما يريده لوقا هو إظهار أحداث القيامة كتمجيد نهائي ليسوع، وبالتالي، فإنّ بين يوم الترائيات الوحيد في لو ٢٤، وبين الأربعين يوماً في أع ١:٣، لا يوجد أي تناقض بالنسبة إلى لوقا؛ كذلك الأمر بين الصعود في خلال يوم الفصح، والصعود بعد أربعين يوماً (أع ١:٦-١١). لقد اختار لوقا تجميع كل ترائيات يسوع القائم من الموت في

٤- لا يخبر لوقا إلاّ عن الظهورات في اليهوديّة: على طريق عماوس (٢٤: ١٣-٣١)، وفي أورشليم (راجع ٢٤: ٣٣ت، ٤٩، ٥٢)، مع أنّه يبدو عارفاً بالتقليد القائل بتراثي الرب في الجليل.

٥- اقترح بعض الشراح بأن يقسم نص لو ٢٤: ٣٦-٥٣ إلى قسمَين: الأوّل ٢٤: ٣٦-٤٣، والثاني ٢٤: ٤٤-٥٣، ممّا يعني أنّه ينقل حادثتَين مختلفتَين، وهذا ما لا يظهره النص.

٦- يختلف الشرّاح حول تفسير المسافة التي يعطيها لوقا في ٢٤:١٣، وبالتالي يبقى مكان عماوس غير محدّد تماماً.

٧- لقد شغل هذا التناقض بين التأريخَين الشارحَين لمدّة طويلة وربّما كان السبب في سقوط لو ٢٤:٥١ب في العديد من المخطوطات القديمة، وقد قاد الاختصاصيّين إلى افتراضات أدبيّة متعدّدة، فاعتبر البعض بأنّ لوقا لم يعرف بظهور يسوع لمدّة أربعين يوماً إلاّ بعد كتابته للإنجيل، في حين أنّ البعض الآخر اعتبر بأنّ كتاب الأعمال قد عدّل فيما بعد بإضافة أع ١:٣-١٢، ممّا أدّى إلى فصل كتاب لوقا إلى كتابَين: الإنجيل وأعمال الرسل. لكن هذه الحلول ليست سوى افتراضات لا تستند إلى أي من المخطوطات القديمة، كما تفترض بأن لو ٢٤:٥١ يعطي تحديداً لوقت الصعود، في حين أنّ دراسة خاتمة الإنجيل تظهر بوضوح نيّة لوقا البعيدة تماماً عن هذا الهدف.

في أوّل أيّام الأسبوع... القبر الفارغ

اليوم الأحد من الأسبوع[٨]، كما اختار لها أورشليم كمكان أساسي يتمّ فيه تاريخ الخلاص[٩]. إنّ لوقا يريد أن يظهر وحدة الحدث الفصحي في صورة مبسّطة محورها أورشليم.

ويوزّع يوحنّا الترائيات على مدى أسبوع، وذلك بحسب مبدأ يتّبعه الرسول، ويقضي بحصر الأحداث الهامّة بمدّة أسبوع، وهذا ما يفعله بأحداث الآلام (يو ١٢:١)، وربّما بأحداث الأسبوع الافتتاحي (يو ١:١٩–٢:١١).

– في اليوم أحد من الأسبوع

نجد عبارة في اليوم «واحد، أحد» من الأسبوع – η μια των σαββατον – في الأناجيل الأربعة (مر ١٦:٢؛ مت ٢٨:١؛ يو ٢٠:١؛ لو ٢٤:١)، وفي ذلك تأثير سامي واضح على اللغة اليونانيّة، لكن الأكيد هو أنّ استعمال الانجيليّين لهذه العبارة دلالة لا ريب فيها على كونها قد أصبحت، عند كتابة الأناجيل، عبارة خاصّة بيوم الأحد كيوم مقدّس عند المسيحيّين (أع ٢٠:٧؛ ١ كور ١٦:٢؛ يو ٢٠:١٩). يبدو أنّ التقليد المختصّ باليوم «الأحد من الأسبوع» كان معروفاً منذ حوالي السنة ٥٥، حيث نقرأ في ١ كو ١٦:٢: «إعلموا أنتم أيضاً بما رتّبته في كنائس غلاطية، وهو أن يضع كلّ منكم، في أوّل يوم من كلّ أسبوع، الى جانب ما تيسّر ادّخاره...»، ممّا يعني أنّ اليوم «الأحد من كلّ أسبوع» قد أخذ مكان اليوم «السابع» (السبت). فمن أين أتى هذا التغير، وما هي موجباته؟

إنّ تحديد اليوم المقدّس المسيحي باليوم الأحد من الأسبوع، هو بعلاقة مباشرة مع توقيت زيارة النساء الى القبر واكتشاف فراغه. إنّ العادة القاضية بزيارة النساء الى القبر كانت معروفة في التقاليد المعاصرة للنصوص الإنجيليّة، ولكن كيف أمكن تحديد هذه الزيارة باليوم «الأحد من الأسبوع»؟

من الواضح أن لا علاقة مباشرة لهذا التحديد مع ظهورات يسوع القائم من الموت، إذ أنّ هذه الترائيات موزعة، كما رأينا، على أيّام عديدة وأماكن متعدّدة، فلا يبقى لنا إذاً سوى الالتفات الى اكتشاف القبر الفارغ كدلالة على قيامة المسيح. إنّ تحديد اليوم الأحد (أو الأوّل) من الأسبوع لاكتشاف القبر الفارغ، يعطي تفسيراً للقيامة في اليوم الثالث. فانطلاقاً من صباح القيامة المرتكز على اكتشاف القبر فارغاً، تعطي تفسيراً للقيامة في اليوم الثالث. فانطلاقاً من صباح القيامة المرتكز على اكتشاف القبر فارغاً، وبالعودة إلى موت يسوع يوم الجمعة، نحصل على ثلاثة أيّام، ممّا يعني أنّنا بعيدون عن منطق التأريخ كعلم بحت. لكنّنا من جهة ثانية، نجد عبارة «اليوم الثالث» كتحديد زمني واضح للقيامة في نص يتمتّع بأقدميّة بالغة، هو ١ كو ١٥:٤. في هذا النص الأخير يفرض التفسير التأريخي نفسه بشكل بديهي، رغم أنّنا لا نستطيع أن ننفي معطيات أخرى لتوضيح هذا الموضوع. في نصوص إعلان يسوع عن موته وقيامته (مر ٨:٣١؛ ٩:٣١؛ ١٠:٣٣–٣٤)، وفي ملاحظة تتبع حيث التجلّي، «أوصاهم يسوع أن لا يخبروا أحداً بما رأوا إلا متى قام ابن الإنسان من بين الأموات» (مر ٩:٩)؛ وفي قول ليسوع يدخل في نص الآلام وإعلان نكران بطرس، يقول يسوع: «بعد قيامتي أسبقكم الى الجليل» (مر ١٤:٢٨)؛ ويتذكّر الحرّاس أنّ هذا المضلّل قال سأقوم بعد ثلاثة أيّام» (مت ٢٧:٦٣). إنّ عبارة «بعد ثلاثة أيّام» تجعلنا نفكّر بأنّها كتبت بعد القيامة[١٠]، لكن ذلك ليس التفسير الوحيد الممكن؛ فعبارة «في اليوم الثالث» أو «بعد ثلاثة أيّام» هي عبارة لا تعني إطلاقاً ثمانياً وأربعين ساعة، لأنّها في الكتاب المقدّس تعني زمناً يسيراً، وهي ترمز في النصوص اليهوديّة الى أمانة الله الذي لا يترك من هو في الضيق يتعذّب طويلاً. ولربما كان في ذلك تتميماً لنبوءة هوشع ٦:٢، كما يشرحها الترجوم: «يحيينا بعد يومين ويقيمنا في اليوم الثالث». فالمقصود إذاً إظهار القيامة كتتميم لتنبوءات العهد القديم، وهو ما يؤكّد عليه كتاب أعمال الرسل في إعلانه أن في القيامة تتميماً للمزمور ١١١: «لا تدع قدوسك يرى فسادا» (أع ٢:٢٥–٣١؛ ١٣:٣٥–٣٧).

راجع:

E. CHARPENTIER, *Christ est ressuscité*, Cahiers Évangile n°3, Cerf: Paris, 1973.

X. LEON-DUFOUR, *Résurrection de Jésus et message pascal*, Paris, 1971.

E. DE SURGY et alt., *La résurrection du Christ et l'exégèse moderne*, Paris, 1969.

L. SCHENKE, *Le tombeau vide et l'annonce de la résurrection*, Paris, 1970.

M. GOURGUES, *À la droite de Dieu*, [illegible]

٨– ليست هذه الطريقة غريبة عن لوقا، فنحن نجدها في نصوص أخرى عديدة حيث نلاحظ بأنّه أحدث تغيرات في مصادره إن في الإنجيل (قارن لو ٤:١٦–٢٠ ومتّى ١٣: ٥٣–٥٨ ومر ٦: ١–٦؛ لو ٥: ١–١١ ومتّى ٤: ١٨–٢٢ ومر ١: ١٦–٢٠) أو في الأعمال كمثل الفصل بين ٨:٤ و١١:١٩ بحيث يعطي للتلاميذ فرصة أخذ المبادرة بتبشير الأمم).

٩– يصعد يسوع إلى أورشليم ليتم رسالته (لو ٩:٣١، ٥١؛ ١٣:٣٣)، وفيها يتمّ سرّ الآلام والمجد، ومنها سيشع الإنجيل على العالم (لو ٢٤:٤٧؛ أع ١:٨).